قصور الاجتهادات العالميّة للحدّ من ظاهرة الغرافيتي بالفضاءات الحضرية

Deficiency of global efforts to reduce the graffiti phenomenon in urban spaces

أ.باي بوعلام، جامعة تلمسان-الجزائر

ملخص: نحاول ضمن المقال الموالي ترصّد أبرز الاتّجاهات والاستراتيجيات التّي اعتمدت في مكافحة ظاهرة الغرافيتيا، عالميّاً وعربياً مع الاستشهاد بأمثلة واقعيّة لتكاليف ماليّة "خياليّة"، واجتهادات عالميّة بارزة للحدّ منها، وذلك بـ "محاربتها" بكلّ الوسائل الدِّعائيّة والرَّدعيّة، فمن سياسات التّمثّل والاستيعاب والإخضاع المقصود، إلى الحملات التّشهيريّة المناهِضَة، إلى مثيلتها الرّدعيّة والقهريّة وتضييق الخناق على المُمارِسين، وملاحقتهم من طرف فِرَق أمنيّة خاصَّة، أدّت في عديد المرّات لمتابعات قضائيّة، أفضت لغرامات ماليّة معتبرة، بل توقيفات سجنيّة تباينت مُدَدُها من مجتمع لآخر ومن مدينة لأخرى، حسب درجات تمثّلاتها واستعمالاتها الاجتماعيّة لهكذا ممارسة اجتماعية.

الكلمات المفتاحية: الممارسة الغرافيتيّة، نظرية النّافذة المَكسورَة، الإخضاع المَقصود، التَّخريب الغرافيتي.

Abstract: We try in the next article, to clarify the various attitudes and most prominent strategies adopted in fighting graffiti phenomenon, both globally and in the Arab world, citing realistic examples of imaginary costs, and prominent global jurisprudence to reduce them. With a policy of propaganda, and deterrence, to policies of containment, and the subjugation intended, to the forced repressive campaigns, to tighten the sanctions against the graffitist practitioners, and their chase by exceptional security forces. This led to numerous judicial prosecutions, and considerable fines, In addition to the prison, and other sentences**.** Vary from one society to another, from one district to another and even from one city to another, according to the degrees of representations and uses of this social practice.

Keywords: Graffiti practice; broken windows theory; intended subjugation**;** Graffiti vandals.

مقدمة:

تعتبر الكتابة(ـات) الغرافيتيّة(Graffiti (s" من بين الممارسات بل الظواهر الاجتماعية المُعرّفَة للمجتمعات المعاصرة، حيث "غَزت" التّضاريس المجتمعيّة بعديد الفضاءات المفتوحة والمغلقة، إذ جَثَت على مختلف الدّعامات المُمكنة، ممّا جعل السّلطات المحليّة لعديد التّجمعات الحضرية تعلن عن سياسات ردعيّة ضدّها، مع مزاوجتها في ذات اللّحظة باستراتيجيات استيعابية لأجل تمثّل وتدجين ممارسيها، تباينت حسب السّياق السوسيوثّقافي لكلّ مجتمع، رغم أصالتها وعراقتها كمَلَكَة إنسانيّة متميّزة، إستثمرها الإنسان الأوّل–الكتابة التّصويريّة-للتّعبير عن مذاق حياته اليوميّة، بتعدّد مستوياتها الفردية والجماعيّة، وتباين مجالاتها المعيشيّة الدّينية، السّياسيّة، الثّقافية والهويّاتيّة، في أوقات السّلم والحرب، في الجدّ والهزل.

ورغم اختلاف وتباين طبيعتها وسياقاتها تطورت كهذا ممارسة في عصرنا بوظائف عدّة، لتتموضَع كأسلوب فردي بالدّرجة الأولى، ثمّ جماعاتي وجماعي بدّرجة أعلى للتّعبير عن خصوصياته الاجتماعيّة، السّياسيّة، الثّقافيّة والهوياتيّة، وفق كوجيطو "أنا أُغَرفِت إذن أنا موجود Je graff/tag, donc je suis"، حيث غدت كـ"أسلوب تحرّري" متميّز، تستبق أو تلازم أو ترِدف أيّة حركة فردية أو اجتماعية، تروم من خلالها إسماع صوتها(بكل ما تحمله مفردة الإسماع) "للآخر" (المهم أو المعمّم)، مهما كانت دائرة تواجده وانتماءاته، فأمست من أشكال المقاومة Une forme de résistance ضدّ التّسلط القانوني والسّياسي والدّيني اتّجاه الأفراد والجماعات(Jeff Ferrell,1995,p77)، ولعلّ المتجوّل الحاذق بالفضاءات الحضريّة بتباين أحجامها وفاعليها، بعديد مدن بل وقرى العالم، يلحظ التّنامي المُلفت لهكذا ظاهرة اجتماعية، خاصّة بالحواضر الكبيرة، حيث تَكثّفَت على مختلف الوسائط الحضريّة.

"ظاهرة" أقلقت وأرّقت السّواد الأعظم من أهل الحلّ والرّبط بمختلف مسؤولياتهم، ما جعلهم يعلنون –صراحة- "الحرب" عليها، تزامناً مع تنامي الإنهجاس البحثي بها، كظاهرة اجتماعية بارزة تستلزم الاهتمام السوسيولوجي والبسيكولوجي بالدّرجة الأولى، بل والفلسفي بدرجة أعلى، ومنه باقي التّخصّصات العلميّة الأخرى، التاريخ، الفن، اللّسانيات..

فما هي أهم الأساليب التّي إنتهجها "هؤلاء" للحدّ من إنتشارها؟، وما أبلغ الاستراتيجيّات التّي نجحت إلى حدّ الآن في ذلك؟، ما أهم السّياسات المحليّة الرّائدة في محاربتها؟، وما خصوصيّات كلّ سياسةٍ منها؟، وما مرجعيّاتها القانونيّة والفلسفيّة؟، وهل نجحت في ذلك، أم أنّ الظاهرة ما زالت في تنامي مضطرد؟. وكيف بدت ردّات فعل من "يتعاطف" مع الممارسة إيجاباً؟،وما موضعها ضمن سلّم التمثّلات الاجتماعيّة للأفراد الفاعلين والجماعات الضّاغطة؟. هذه أبرز الأسئلة التي سنجتهد للإجابة عليها، لكن قبل الاندلاق في ذلك نحاول الإجابة على سؤال قاعدي، **ما الغرافيتي وما إنزياحاته الدّلالية؟.**

1. بداية ما المقصود بالغرافيتيا؟.

تتجلّى هوية مفردَة "Graffiti" في بنيتها ودلالتها اللّغوية المعاصرة إيطاليّة الأصل والفصل والبنيّة، مشتقّة من فعل "Graffiare"، ومعناه يَخدُش ويَكشُط. وَلَجَت سوق التّداول المعجمي بداية النّصف الثاني من القرن التّاسع عشر(1851) من خلال القواميس الإنجليزية، لتقترضها القواميس الفرنسيّة بمفردة "Graffite" سنة 1878، ثمّ "Graffito" سنة 1886 (Romain Sahut,2003,p3).ايتيمولوجياً تذكر عنها قواميس التّجذِير وتعليل أصل الكلمات والألفاظ أنّها ذات أصول لاتينيّة ويونانيّة، ثمّ إيطاليّة أين إكتسبت دلالاتها النّهائية، حيث تعرضت لإنزِيَاحات دلاليّة متعددّة المعنى والمبنى والاشتقاق، بعدما كانت تقتصر في معناها الأوّلي على تلك "الكتابات التّاريخيّة" التي خلّفها الأجداد على جنبات الكهوف والمغارات، وردهات وممرات المباني القديمة.

يُسَوَّق المفهوم في لغات المَنشَأ بِبُنَى ومَعاني متعدّدة، لكنّها تتقاطع في دلالة مشتركة، ففي اللّغة الإغريقية مثلاً، نجد كلمة "Grapheim" تعني: يكتب، يرسم أو يُلَوّن، أمّا في اللّغة اللاّتينية فأصل الكلمة يعود لمفردة "Graphium" وتعني: يُخَرْبِش، يَخْدُش، ويَكْشُط (Pierres Philosophales, 2010, p150). في حين نجدها ضمن اللّغة الإيطالية مشتقّة من مفردة "Sgraffito"، بمعنى "يَخدُش، ويُخربِش". تطورت اِشتقاقاتها لمبنى"Graffito"، مفرد كلمة "Graffiti"ومعناها: "كَتَب وخَدَشَ أو خَمَّشَ أو حَكَّ سَطحاً" (Romain Sahut,2003, p4)، لو لخصنا المعاني العامّة لمفردة "غرافيتي Graffiti" في اللّغات الأوروبية نَلفيها تدل على أيّة كتابة أو رسم أو خدشٍ،.." غُرْفَتَ "على الجدران، وما شاكلها من دعامات(Les supports) غير مخصّصة لذلك، بِاستخدام أدوات كتابة تقليدية أو معاصرة، كالفحم والدّم، الأصباغ والرُذّاذ... ففي قاموس"Le Robert" مثلاً تدل الغرافيتي على كلّ كتابةٍ أو رسمٍ مخطوطٍ أو منقوشٍ على الحيطان، وعلى جَنَبات آثار المدن، وفي دلالتها العامة تدل على كلّ كتابة أو رسم رَكِيك على الجدران والأبواب العامّة أو الخاصّة، أو خَربَشات سَاقطة وفاحشة Des gribouillages obscènes، وعليه يتبن ممّا سبق أنّه رغم تباين التّعريفات من حيث الأصل والفصل تبقى تتقاطع في مدلولها المعاصر باعتبارها ممارسة اجتماعية غير رسمية.

2. الغرافيتيا بين الوصم الرّسمي والوصف الشّبابي:

تباينت السِّجالات والمُناكفات حولها إذ يُرقّيها البعض لدرجة العمل الفنّي المتميّز، بينما يحتقرها ويُدَنِّسُها البعض الآخر ويُنزلها لِدَرَكة الفعل التَّخريبي (Un acte de vandalisme) للممتلكات العامّة والخاصّة، وتلويثها للفضاء العام، ونظرًا لحضورها اليومي المكثّف بمختلف التّضاريس المجتمعيّة وانتشارها المَهول، وارتفاع نفقات "محاربتها" بالنّسبة للسّلطات المحليّة وللأشخاص المتضرّرين، فرضت ذاتها كموضوع سياسي وبحثي مهم. كلّ ذلك جعل "الغرافيتيا Graffiti" تحتل صدارة الانشغالات "المُقلِقَة" للسّلطات المحليّة، بأكبر الفضاءات الحضريّة العالميّة، خاصّة الأمريكيّة، الأوروبيّة، الأستراليّة والعربيّة... ذلك لنتائجها "السّلبية" في تمثّلات بعضهم.

فتباينت الاتّجاهات وتنوّعت الاستراتيجيات في مقاربتها، ما بين محاولة اِستيعابها وتَدجين مُمارسيها، ليس لتفعيلها لصالحهم وإنّما للقضاء عليها، أو على الأقل للحدّ منها، أو تحوير وظيفتها لرهانات سياسيّة وأيديولوجية خاصّة، فما حدث كَردِّ فِعل على تنامي الظاهرة كان عكس ما هو مطلوب فَعِوَض اِقتراب أهل الحَل والرَبطِ ومَالِكِي وسائل الإكراه من "المُغَرفِتين Les graffeurs"، لمحاولة تَفهُّم الدّوافع الثّاوِيّة وراء هكذا "إقبال هِستِيري" عليها، اِرتأت اِنتهاج "السُّبُل التّقليدية" في معالجة "المشكلة" بإعلانها "الحرب" عليها، ممّا أسّس لعلاقات مضطربة بين الواصِم(es)Le(s) stigmatiseur (أهل الحل والرّبط) والموصوم Le(s) stigmatisé (es) (الممارسين)، ترجمتها طبيعة ردّات فعل الطّرفين.

إلاّ أنّ الممارسة الغرافيتيّة لم تُخْمَد إلى يومنا هذا، بل تفاقمت خسائرها الماديّة، النّفسيّة والاجتماعيّة، وحتّى البشريّة منها، ممّا أدّى لِاحتدام السِّجالات بين الباحثين والسّياسيين حول علاقة المجتمع ومَواقِفه من هكذا سلوك قديم جديد، ودرجات "خَطورته" على الأمن العام، فتعاظمت أصوات تنادي بضرورة محاربة هكذا سلوك "مَشِين" و"غير حضاري"، ومعاقبة كلّ من يُضبَط في حالة تَلَبُس، فكانت البداية بإطلاق السّلطات المحليّة لحملات تنظيف شاملة بمختلف نِطاقات الفضاءات العمرانيّة، بدءاً بمداخل ورَدَهات مسارات المترو، عربات القطارات، جدران العمارات والمحلاّت، المقرّات الرّسمية، المراحيض.. مدعَمةً من كبرى المؤسّسات المتضرّرة منها، فقامت بتسخير إمكانيات ضخمة لذلك، ماديّة وبشريّة.

فمثلاً في الولايات المتّحدة وحدها (مَهدُ الظاهرة بلونها المعاصر) تَمّ تجنيد أزيد من 1000عامل لتنظيف 6245 قاطِرة، و465 محطّة قطار، بتكلفة قدّرت بـ52 مليار$، ما بين سنة

1984 إلى1989، واستقرّ متوسط الإنفاق السّنوي على هذه المهمة في 12 مليار$، بل وصل الأمر لحدّ تجريم امتلاك "عبوة البَخ La bombe de peinture"، ابتداء من 2006، وتمّ تخفيض السِّن القانوني لإمتلاكها ب18سنة بدل 21 (AFP, 2006).

كنتيجة لهكذا حملات واسعة ضدّها تراكمت في عديد اللّغات توصيفات "سلبيّة" لمعاني الغرافيتيا، لخّصها الباحث "Tim Cresswell"(Ilse Scheepers, 2004)، كما يلي: الغرافيتيا باعتبارها تلويث بصري، تخريب مقصود، مؤشّر للعنف وغياب الأمن، شكل من أشكال الانحراف، إنّها من أخطر أمراض الفضاء الحضري، بل "الطّاعون الحضري" حسب "Michael Walsh" الذي يجب تَطْبِيبَه، والسّرطان المستفحل في جسم المجتمع (Michael Walsh,1996,p84)، كما ينعتها "Bob Bryan" بـ"الفيروس Virus" المستفحَل في الجسم المجتمعي تسرّب لكامل مستويات الوعي، ومثله مثل أغلب الفيروسات لا يمكن الكشف عنه إلاّ بعد إستفحاله في كامل الجسم، فتصعب معالجته والقضاء عليه. بدوره سجّل " Craig Castelman" بداية ثمانينيّات القرن العشرين ملاحظة نبّه فيها أنّ ظاهرة الغرافيتيا كثيرًا ما أُلصِقت بها أحكام قِيْمِية مُعَمَّمة ومُسبقة، لم تستند لدراسات علمية رصينة (Craig Castleman,1982)، وفي ذات السّياق يشير "Eric Felisbret" إلى أنّ السّلطات المحليّة – بنيويورك وغيرها- تعاملت مع الغرافيتيا باعتبارها عَملاً تخريبيًا، يُشَوّه المنظر العام للبِنايات ويُنقص من قِيمتها التّجارية (Eric Felisbret & Luke Felisbret, 2009,p23).

يعتقد بعض المهتمين أنّ الغرافيتيا مع نهاية القرن العشرين أضحت ظاهرة ديموغرافية، إذ ما فَتِئَت تَتّسع يومًا بعد آخر، ممّا جعل تكلفتها في ارتفاع مقلق ومضطرب، أثقل ميزانيّة السّلطات المحليّة، فعلى سبيل المثال أنفقت سلطات مدينة "Los Angeles" سنة 1992 مبلغ 15.000.000$، لحملات تنظيف جدرانها وواجهات محلاّتها وجسورها،.. بالموازاة أطلقت إستراتيجية ردعيّة للحدّ منها عُرفت ب"Tolerance Zero" مع بداية 1994، حيث صُنِّفَ هذا الفعل في خانة الجُنَح، يُعاقب عليه القانون بشدّة، وأُدرج ضِمن قائمة "التّلوث البصري Pollution Visuelle"(Nicolas Mensch, 2013) .

تَراكمَت أساليب وأشكال الوَصم Les formes de(s) stigmatisation(s) بصِفات التّقبيح والتّسفيه، والقدح والذّم للممارسين ولمنتجاتهم الفنيّة، ونَعتهم بـ"غير المتحضّرين" و"غير المسؤولين" يقول "Joe Austin"، بل شُكّلت فِرَق شرطيّة ضدّ الغرافيتيا Les brigades anti-graffiti، مُزوّدة بكلاب مُدرَبَة على ملاحقة الفاعلين المجرمين، لتقديمهم للعدالة قصد المحاكمة، ففي سنة 2005 تمّ توقيف 2230 "مُمارس" بالمدينة بِتُهمة "التّخريب الغرافيتي"، للإشارة 93% منهم تَمَّ توقيفهم سنة 2004 (Joe Austin, 2001, p4) .

لقد "وُصِمَت" -كما أشرنا- الممارسة الغرافيتية بشتّى النّعوت الدّونيّة، أكسبتها سمعة سيئة خاصّة عند "حرّاس الرّأسمالية"، كادت أن تُخرجها عن دورها النِّضالي بعدما تزايدت عليها الضّغوط الاجتماعية والقانونيّة، الدّاعية لضرورة التّخلص منها مهما بلغت الأثمان، ومعاقبة مرتكبيها باعتبارها تخريب وتشويه للممتلكات العامة والخاصة، بل ومصدر إزعاج غير مرغوب فيه، وأنّها تَعَدِّي صارخ على قُدسية حق الملكيّة النّابعة من روح الرّأسمالية، ممّا أفضى لعلاقة متوتّرة بين الممارسين والسّلطات، أفرزت ما أسماه "Joe Austin" بالأزمة الحضريّة Urban Crisis" (Joe Austin.2001,p5) زادت السّلطات حرصاً على محاربتها بكل الوسائل، وتشديد العقوبات على فاعليها.

فها هو عمدة بلدية "Chicago" يُصدِر تعليمات بفتح مكتب البلدية على مَدار 24 ساعة، لِتَلَقي أيَّة شكوى ضدّ "الطَّلاءات المزعجة"، وأنّه مستعد لإستخدام أيّ نوع من المُذِيبات لمحْوِها، أمّا في مدينة "نيويورك" مَهد الممارسة دأبت شاحناتها الثّلاثين تَقَفُد الشّوارع يوميًا، بُكرةَ وأَصيلا،

بُغيَة رَشّ مَزيجاً من المياه والمواد الكيمائيّة، بهدف تنظيف ما غُرْفِتَ على واجهاتها، فذكرت إحصائيات 1989 أنّ نفقات التّنظيف تجاوزت150 مليون$، موزّعة على 80000 ساعة عمل، لتتضاعف المجهودات سنة 2008، من لدن الفرق المختصّة، إذ قامت بتنظيف 8496 وحدة غرافيتيّة، مقابل 5990 وحدة خلال السّنة السّابقة (2007)، ليرتفع سنة 2009ما يزيد عن 8500 وحدة، فالظّاهرة كما يؤكّد رئيس البلدية "Michael Bloomberg" تدمر ممتلكات النّاس، وهي علامة للانحطاط وفقدان السّيطرة على الفضاء العمومي، ومازالت في تَنامي مستمر رغم تشديد الإجراءات الرّدعية اتّجاهها، على نحو مَنعِ بَيعِ بَخاخَة الأصباغ للأطفال الذين تقلّ أعمارهم عن الثّامنة عشرة سنة (Joe Coscarelli, 2013).

ولم تَجِد سلطات ولاية "فيلاديلفيا" عن القاعدة، حيث زاوجت بين سياسة الاستيعاب والاستبعاد، فخصّصت "برنامجاً طموحًا" للحدّ من انتشارها، وشَيَّدَت سنة 2007 حوالي 2000 جِداراً رسمياً لمُمارسي الغرافيتيا، كبديل عن باقي "الجدران الحقيقيّة"، مقابل تكثيف حملاتها الرّدعيّة، إلاّ أنّ "الحرب" حسب "Eric Flisbert" لم تقض على رَسّامي الغرافيتيا، بل بَعثَرتهم فَقط، وزادت الظّاهرة ضراوة سنة بعد أخرى، رغم تشديد العقوبة في حالة التَلَبّس بِسَنة سجن وغرامة ب1000$. للأسف في كثير المرّات يغلب المنطق السّياسي على المنطق العلمي في معالجة عديد العلل المجتمعيّة، ممّا يُضفي لنتائج غير فعّالة.

3. نظرية "النّوافذ المكسورة" مرجعيّة أساسيّة لمحاربة الغرافيتيا:

تعتبر نظرية "النّوافذ المكسورة Broken Windows Theory" إحدى المرجعيّات المُهمّة في التّنظير لمكافحة الممارسة "المنحرِفة/الإجرامية" عامّة، والغرافيتيّة خاصّة، نظريةٌ هَندَس معالمها الأمريكيان "James. Q. Welson" و"George.L. Killing"، حيث ساجَلا لفعاليّتها في تلمّس وتَقييد جلّ الأفعال المنحرفة والإجراميّة في بواكير تبلورها، ومن بينها الغرافيتيا، بل ولكلّ الأفعال المعاديّة للمجتمع Les comportements antisociaux، كما رافعا عن فعاليّتها التّنبؤيّة والرّدعية في عديد المناسبات، وعن معادلتها الرّئيسة **"الفوضى تَجذُب الجريمة، والجريمة هي النّتيجة الحتميّة للفوضى"** (George L.Kelling & James Wilson, Q,1982).

يتلخص جوهر هذه النظرية فيما يلي: الجريمة مهما كان نوعها هي نِتاج للفوضى وعدم الالتزام بالنّظام العام، فإذا كُسِرت نافذة ما، في مكان ما، في حيّ مدينة أو قرية ما، ولم يَتم تصليحها في حينها، تتحوّل بسرعة مذهلة لمَجْلَبَة ولإستثارة الفعل الإجرامي باختلاف أشكاله وأحجامه، الذي يَبتدئ بالتّخريب وينتهي بالقتل وإشاعة الفوضى، إنّها "بِطاقَة دعوة" مجانيّة لهكذا فعل منحرف، فإذا كُسِرت نافذة ولم تُصلّح في حينها، تكون النّتيجة تَكَسُّر باقي النّوافذ.

لماذا؟، لأنّ الرّسالة المُرسلَة من عدم الإسراع في تصليحها أو تغييرها، أنّ لا مالك لها، وبالتّالي لا مسؤول عن الفضاء (البيت، العمارة، المؤسّسة، الحافلة، القاطرة،..)، أو أنّه لم يَأبَه ولم يَنزَعِج أحد لهكذا فعل، فتبدأ الأطماع تتلاحق، وتَدُبُّ الفوضى، وتستقطب كلّ من يميل لممارسة الانحراف من شارع لآخر، وهكذا دواليك. ولإستباق ذلك اقترح المُنظّران بأن تُصَلَّح كلّ نافذة كُسِرَت أو تَشَقَّقَت في حينها، لأنّه قد تنقلب المعادلة إذا لم يتم ذلك، فإذا أُهمِلَت أضحت مُؤشّرًا للأشخاص "غير الصّالحين" بأنّهم "مسؤولو المكان" والمحيط، فيمسي وَكرًا للجريمة والانحراف، لذا يجب تفعيل قاعدة "الوقاية خير من العلاج"، بالإسراع في معالجة الأمور التّي نعتقد أنّها صغيرة وهامشيّة، لأنّ "العدوى الإجراميّة" تبدأ بفعلٍ طائشٍ وقد تنتهي بسفك الدّماء، فعظائم الأمور تبتدئ بصغائرها.

ويؤكّد الباحثان على إمكانية اِنسحاب ذات المبادئ على شؤون الاقتصاد والخدمات، فإذا بقيت- مثلا-مراحيض مطعم " Berger King" بدون 'وَرق التّنظيف'، قد تنبّئ برداءَة التّسيير الدّاخلي

للمطعم، وعدم الاكتراث لحاجات الزّبائن، ممّا يجعل الزّبون يستنتج أنّ الطعام لا يحُضَّر بطريقة سليمة، ويرشّح احتمال وجود أخطار صحيّة ما دام الإهمال وَصل حتّى للمراحيض، لأنّ المشاكل العويصة-حسبها- تتراكم تراكُم "كُرَة الثّلج Boule de neige" التّي كلّما زادت تدحرجاً كلّما عَظُمَت حجماً وتعقيداً، ولخصا ذلك بعبارة: "نعتقد أنّ الأمور الصّغيرة هي التّي تُحْدِث الفَرق الشّاسع في عالم الأعمال وباقي مناحي الحياة" (Kelling, George L.&Wilson, James Q,1982,p39)، أو لم يقولوا أنّ عظيم النّار من مستصغَر الشّرر، فعديد الأفعال المنحرَفة قبل أن تتحوّل لظواهر عسيرة المعالجة والفهم، تبدأ من محاولات فردية بسيطة، ولكن بتجاهلها تمسي عظيمة ومعقّدة.

1.3 ما موقف هذه النظرية من الغرافيتيا؟:

بعد اِنتشار صِيت هذه النظرية اختارت بلدية "نيويورك" "George Kelling"، مستشارًا لقطاع المواصلات العامّة، خاصة قطارات الأنفاق، فاِقترح على سلطاتها تفعيلها بدءًا بالممارسة الغرافيتيّة، فأعلن رئيس البلدية "John Lindsay" صيف 1982 عن أوّل عملية منظمة ضِدّ المُمارسين، وصفها بـ"الحرب المفتوحَة" ضدّ الغرافيتيا، ونشر نداءاته عبر وسائل الإعلام المحليّة تحت شعار "يا سكان مدينة نيويورك هُبُّوا لمساعدة مدينتكم الرّائعة، دافعوا عنها، وحافظوا عليها بمساندتكم لنا في حربنا ضدّ هؤلاء السَّفَلَة، الجُبَناء والمرضى".

تمّت تَبيئَة هكذا نظرية لمحاربة الممارسة تحت اِسم نظرية "الجدار المُغَرْفَت Le Mur tagué"، الذي إن تُرك دون تنظيف لحظة اِكتشاف الحروف أو الكلمات الأولى، بل حتّى الشّخبطات، تَحَوّل لفضاءٍ مُستثيرٍ للممارسة، ومحفّز قويّ لإقبال الأفراد "المَمْسُوسِين" بها، وفي ذات الوقت كمؤشّر واضح لعجز السّلطات المحليّة عن التّحكم في الفضاء المديني ككل، ممّا يُحفّز المراهقين للتَّهافُتِ عليها. وقد يحدث العكس إذا تَمّ تشديد وتوسيع عملية الملاحقة بتنظيف كلّ غرافيتيا لحظة ميلادها، ممّا يوحي بالحضور القويّ للسّلطة بالفضاء، وبأنّ سياسة اقتناء الجديد من القطارات بمبالغ خياليّة ليست حلاً للمعضلة، فعبّر عن ذلك بسؤال: ما فائدة غسل سطح سفينة TETANIC وهي تهمّ بالاصطدام بجبل الثّلج، حيث ستغرق بعد لحظات، فاِقترح اِنشاء محطّات تنظيف قارّة عند محطّات الوصول Terminus لتنظيف قاطرات القطارات المُغَرفَت عليها، بشكل دوري، وتجسيد ذلك مهما كلّف من وقت ومال ورجال.

ولكن ورغم ثمار سياسة "التّضييق الشّديد" على ممارسي الغرافيتيا والتّي آتَت أكلها لكن ليس كلّ حينٍ، حيث واصل الفاعلين "نضالهم"، فَها هو رئيس لاحق لبلدية نيويورك السّيد "Rudolph Giuliani" يعلن بداية 1994 عن تصعيد العمل المشترك للحدّ من الجريمة، خاصّة "التّخريب الغرافيتي Graffiti vandalism" (Jonathan P. Hicks,1994)، فأطلق بمساعدة محافظ شرطة المدينة "William Bratton" سياسة ردعيّة، سُمّيت بـ"التّسامح صفر Zero tolerance"، حيث طُبّقت قوانينها على كلّ الجرائم، بدءًا بالمخالفات البسيطة ووصولاً لأخطرها مع التّركيز على 'جريمة الغرافيتي' التّي شوّهت -حسبه- المنظر العام للمدينة، بهدف بناء مدينة أكثر أمنًا ونظافةً (Tim Newburn and Trevor Jones,2007,p228). وبالفعل تحقّقت بعض مراميه، حيث تشير الإحصاءات الرّسميّة لتراجع نسبة الجريمة بأنواعها، بما فيها الغرافيتيا، خلال السّنوات التّي عرفت تصعيدًا في تطبيقها إلاّ أنّها لم تتمكن من دحضها، وبالتّوازي أُطلقت محاولات لاستيعاب الممارسين، ولعلّ من أبرز التّجارب الرّائدة في محاولة "تدجين الممارسة" بالمجتمع الأمريكي.

2.3 اجتهادات مؤسسة "برنامج الفن الجداري":

قرّر عُمدة مدينة "Philadelphia" بداية 1984 تأسيس فِرَق خاصّة لمحاربة الفاعلين، لتتحوّل بعد مدّة لمؤسسة "Philadelphia Anti-Graffiti Network "PAGN تَرَأسَتها

آنذاك الفنّانة والنّاشطة الاجتماعية "Jane Golden" التي صرّحت ذات يومٍ معلّقةً على فكرة البرنامج قائلةً: "في البداية بدا الأمر نُكتة بالنّسبة لسكان المدينة، وكان غير مشجّع على الإطلاق، فكرت مَلياً لكن سرعان ما اِتّضح لي أنّ الحل يَكمُن في تنمية الحس الجمالي في هذا الفن"، فأطلقت مشروع "برنامج الفن الجداري Mural Arts Program" والذي ما زال ساري المفعول، حيث توسعت اهتماماته إلى توعيّة السّجناء الذين سُجنوا بسبب الغرافيتيا. وقد قام البرنامج بتنفيذ 2100 لوحة فنيّة عبر كامل المدينة (Café Graffiti,2013)، مُهِمّته الأساسيّة تحويل الجدران وناب عنها من مساحات مُستَباحَة للتَّخريب الغرافيتي إلى لوحات فنيّة تُزَيّن المنظر العام للمدينة، بالإضافة لإعادة تأهيل الشّباب الذي اِمتَهَن الغرافيتيا كوسيلة للتّعبير عن رفضه لثقافة التّهميش.

لتفعيل ذلك تَمّ إنشاء منظمة بِاسم "مجموعات/عصابات الغرافيتي Graffiti Gangs"، تَضمّ شباباً من مختلف الأقليّات العِرقيّة، تهدف لإعادة تأهيلهم، بحيث تيسّر لهم الانخراط الإيجابي في حركة جماعيّة تُحوّل البُعد النَّاقِم والسّلبي في ممارستهم لفعلٍ خَلاّق ذي طابع فنّي جمالي، يُستَثمَر في تزيين فضاءات المدينة (مرح البقاعي، 2004). لكن الملاحظ اليوم على استراتيجية السّلطات أنّها ما زالت تشتغل بعقلية سبعينيّات القرن العشرين، حيث تزاوج بين الإستدراج "الانتقائي" وتشديد الإجراءات الرّدعية وتكثيف الحملات المضادّة. للإشارة مُعظم الانتقادات التي وُجّهت لهذه النّظرية أجمعت على القيمة العلميّة لها، مع تحفظات للمبالغة في الاهتمام بصغائر الجُنَح ممّا قد يُفَوّت ويُلهي عن الجرائم الخطيرة.

4. فعاليّة الإستراتيجية الكنديـة:

تعتبر "كندا" من بين الدول الرّائدة في محاربة الظّاهرة من خلال عديد الاستراتيجيات، تباينت ما بين سياسة الرّدع والعقاب -أُسْوَة بسياسة الو.م.أ-وحملات التّوعية والمُهادَنة، فلم تُؤتِ سياسات الرّدع أُكلَها (الحدّ من انتشار الظاهرة) فتعالت أصوات تدعو لضرورة الاستعانة بلغة التّوعية والحوار المفتوح. فقد صرّح مستشار مدينة "Montréal" السّيد "Raymond Carrier" أنّ السّلطات أنفقت ملايين الدّولارات لمحاربة الظاهرة إلاّ أنّها أهملت "الطريقة الحِوارية" مع هؤلاء لإقناعهم بالإقلاع عنها، لأنّه لو أخذ السّكان زِمَام المواجهة ضدّ الممارسين قد يُضفي لتنامي العنف لدرجات أخطر، لأنّ كل مواطن قد يقتَني عَصا 'قولف' أو 'بيزبول' لمواجهتهم، بل وحتّى الأسلحة، ممّا قد يضفي لنتائج غير محمودة (Raymond Viger, 2011).

ومن بين أهم المشاريع التّوعوية التّي أُعلِن عنها بذات المدينة مشروع " مقهى الغرافيتي Café-Graffiti"، الذي انطلق بداية 1997 كمحاولة جادّة لِنَسج علاقات تواصل وتحاور ما بين السّلطات ومجموعات الشّباب المُمارِس "للهيب هوب Hip Hop"، وعلى رأسها الغرافيتيا في بُعدها الفنّي، أفضى لعقد لقاءات تشاوريّة حول القضايا التي تُعيق وتكبّل طموحاتهم. تمّ ترقيته لفضاء خصب لتَلاقُح الأفكار والعمل لتطوير فَنِّهم المتعدّد الأبعاد (البْريكْ دَانس، الرّاب والغرافيتي)، بالمقابل تَمّ تسيير المركز من طرف السّلطات المحليّة بُغْيَة تحسيسهم بمخاطرها، ومحاولة الالتفاف حول هؤلاء "المُتَمرِدين"-حسبها-.

وبالفعل استطاع هذا الفضاء الجديد تفعيل بعض المشاريع الطّموحة والجذّابة للشّباب، من بينها وضع جدران خاصّة للكتابة عليها بكل حرية، مركزٌ وصفه "Raymond Viger" (المدير العام والفنّي) بأنّه" أصبح عائلة جديدة لمنتسبين إليه، يستقبل الشّباب الرّامي لبناء هويّة جديدة تتوافق مع قدراته وطموحاته الإبداعيّة، أو تمويل مشاريع جماعيّة هدفها جمع شمل الشّباب ومواطني الأحياء بغية التّفاهم والتّقارب(Raymond Viger, 2013)، لكنه سنة 2000 تَمّ توقيف ميزانيّة التّدخل الوِقائي للظاهرة، بسبب قناعات رئيس البلدية الجديد للحدّ من الغرافيتيا المنتشرة، رغم استمرارية نشاطات "المقهى الغرافيتي" في أداء وظيفته التّحسِيسيَّة.

كما كشف تقرير لشركة النقل بـ"Montréal" 1999 أنّ المساحة التّي تحتلها الغرافيتيا في محطّاتها تَتعدّى 8827م^2 (ما يعادل مساحة ملعبين لكرة القدم الأمريكية)، وبأنّ تكاليف تنظيفها بلغت541$ للمتر المربَّع الواحد، وقد يتضاعف الثّمن بالمساحات المُسْتَعصِيّة. وانسحب الأمر ذاته على مدينة "Gatineau" سنة 2005 حيث احتلت الصَّدارة فيما يتعلق بـ"التَّدخل الغرافيتي"، حيث خَصَّصت إثني وعشرين جداراً للممارسة الغرافيتيّة (المسموحة)، إضافةً إلى ثمانيّة جدران مُتَنقِلة لإحياء التّظاهرات الثّقافيّة.

أمّا بمدينة "Québec" فَتَمَّ الإعلان عن مشروعين رائدين للشّباب المَمْسُوس بالممارسة، الأوّل بالتّعاون مع "Maison Dauphine" لمساعدتهم لتنظيم المنتوج الغرافيتي الفنّي، كاستراتيجية لترشيد الممارسة، والثّاني مع منظمة " Carrefour jeunesse- emploi" للعاصمة لتنميّة القدرات الشّبابيّة، وبالموازاة تمّ تفعيل حملات لتوعيّة المواطنين بضرورة تنظيف المساحات المُغَرْفَت عليها، والبحث معًا عن حلول أكثر تحضّرًا وملاءمةً لإكراهات الواقع، حتّى أضحت محاربة الظاهرة مؤشّرًا للتَّباهي بين السّلطات المحليّة، بل برنامجاً انتخابياً يُسْتَنجَدَ به لحَشْدِ الأصوات واستعطاف المنتخَبين. فهذه مدينة "كبيك" تعلن عبر وسائل الإعلام بأنّها نَظّفت سنة 2006 ما مساحته 11000 قَدَم مُربع في44 يومًا-فقط- حيث تَمَّ إزالة حوالي13000 وحدة غرافيتيّة، استخدِمت فيها أحدث منتجات التّنظيف الغرافيتي، بفضل مشروع "Graff'Cité" الذي أطلقته السّلطات لمحاربة الغرافيتيا بمبلغ 23000$ وبإشراف مسؤول عن أعمال التّنظيف ومساعدين نفسانيين واجتماعيين (Jean Cazes , 2007).

في ذات السِّياق أطلقت الفنانة الكندية "Joëlle Tremblay" عبارتها المشهورة "الفن الذي يَجمعنا"، إذ قامت بِعدَّة جولات للمدارس والجامعات للاستفسار حول حاجات وتطلّعات ورغبات الطّلاب، ومن ثَمَّ ترك لهم الحرية في الكتابة والتّعبير وِفق قاعدة أخلاقيّة تتلخص في "أصْغِ والْزَم الصَّمت"، الهدف منها مساعدة كلّ طالب يُمارس الغرافيتيا في الكشف عن هويّته الإبداعيّة، في فضاءٍ يختزل الشَّخص لِيُمْسِي مجرد مستهلك، كما تمّ استثمار التّقنيات المعاصرة من لدن السّلطات في حملاتها الرّدعية والتّوعوية كالأنترنيت، حيث خُصّصت مواقع إلكترونية للإعلان عن خدمات تنظيف الغرافيتيا، ولتحسيس وتوعية المجتمع المدني والشّباب المُمارِس بمخاطر الظاهرة مجتمعياً، على نحو موقع "Goodbye Graffiti".

أكثر من ذلك حتىّ الفضاء المدرسي والجامعي لم يسلم من "العدوى"، ما رفع تكاليف التّنظيف لمستويات مُقلِقَة ومُكلِفَة، حيث أشارت "Jonathan Woodward" إلى أنّ فاتورة التّنظيف لمدرسة "Vancouver school Board" بمدينة" Vancouver" الكندية بلغت سنة 2003 أزيد من 150.000$ كندي، ممّا اِضطرّها لفرض غرامات ماليّة بـ 500$ كندي لكل طالب يُضبط يمارس الغرافيتيا كمحاولة لخفض التّكلفة، وبالموازي فرضت السّلطات المحليّة للمدينة على كامل المؤسّسات تنظيف جدرانها وواجهاتها في مدّة لا تتجاوز عشرة أيّام من ظهورها، وإلاّ تُعاقب المؤسّسة ب100$ كغرامة عن كل يوم تأخير (Ian Ashley, Daniel Beynon, 2005)، كما خصّصت ثانوية "Collège Jean-de–Brébeuf" جريدة طُلابية بعنوان" Graffiti"، سُمِحَ للطّلبة بالتّعبير الحر عمّا يخلد في أذهانهم بما يناسبهم. أمّا إدارة جامعة "Université de la Colombie-Britannique" فأنفقت سنة 2003 أزيد من 145000$ لتنظيف الغرافيتيا باستخدام مواد كيميائيّة باهظة الثّمن، ما أفضى لاستهلاك مُخصّصات رُصِدت لخدمات وتجهيزات أخرى (Ian Ashley, Daniel Beynon, 2005).

5. خصوصية المعالجة البريطانية للممارسة:

تميّزت المعالجة البريطانيّة نوعاً ما-في البداية-عن مَثيلاتها الأوروبيّة، حيث خصّصت لهؤلاء أماكن ومساحات للتّعبير الحر عمّا يدور في عقولهم، وزوّدتهم بالأدوات اللاّزمة لذلك، بشرط ألاّ

يتعدّوا هذه الأماكن "المخصَّصة" ومع ذلك لم تتوقف الظاهرة، حيث بلغت تّكلفة التّنظيف سنة 1989 حوالي 800.000$ على مستوى المدن، كما ارتفعت فاتورة المحافظة على أنفاق لندن خلال سنة 1997 إذ تعدّت 25.000.000$، ممّا اضطرّها لتكثيف حملاتها الإشهارية المضادّة للغرافيتيا، على نحو التّحذير الذي ألصقته على خلفيّة مقاعد القطارات بعبارة "**غرافيتي ومحطتك القادمة السّجن**".

وكردّ فعل غير مرغوب فيه لهكذا "سياسات ردعيّة" تشكّلت جمعيّات مدنيّة تطالب بضرورة احترام حرية التّعبير، وإفساح المجال للشّباب لتفريغ مواهبهم بأساليبهم الخاصّة، بعيدًا عن القوالب التّقليدية الرّسمية على ما ذكرته " Jill Posner" في كتابها "Spray it loud" 1982 (Liz Wells,2004) عن جمعية أستراليّة للدّفاع عن المُمارسين، وقد وضّحت الطّريقة المُثلى للتّصرّف في حالة القبض على المُغَرفِت Le(a) Graffeur(e)، والوسائل القانونيّة اللاّزمة لذلك، كطلب المحامي حيث يحاكم الفاعل بتهمة تدمير الممتلكات العامّة التي تصل إلى التّجريم قانونياً.

6. المحاولات الفرنسية لكبح الظاهرة:

تعتبر الغرافيتيا ممارسة يعاقب عليها القانون الجزائي الفرنسي، ففي المادة 322-1 الفقرة 2 من قانون العقوبات، تنصّ على "أنّ أيّة كتابةٍ أو خطٍّ علامات أو رسومات على الواجهات، أو السّيارات، أو الأماكن العامّة، أو العقارات، دون الموافقة الرّسمية المسبقَة، تُعرّض فاعلها لغرامة ماليّة تقدرب3750 €، ولعقوبة العمل للمصلحة العامة إذا ترتّب عنها خسائر طفيفة".

في البداية كان تعامُل السّلطات معها خاضِع لطبيعة "المَضامين الغرافيتيّة Les contenus graffitiques" المرسَلَة، إذ أُعتبرت "المَضامين السّياسيّة" الشُّغل الشّاغل لها، ويجب بذل كل الجهود لِطَمسِها، بينما أُعتبرت الكتابات الأخرى بمثابة تعبير عن فضول شخصي. لكن مع تَفاقم الظاهرة في منتصف الثّمانينيّات عبر مختلف الحواضر الفرنسية، في مقدمتها العاصمة لخصوصيّة أنفاق مترو باريس، إضطرّت السّلطات المحليّة لرفع درجة "التّهديد الغرافيتي"، فكثّفت عمليّاتها الرّدعيّة بفِرَق خاصّة Brigades anti-graffiti"، مُدَجَّجة بآلات ومعدّات ومواد تنظيف الكتابات، كما تمّ الإعلان عن مناقصات وطنيّة لإنشاء مؤسّسات خاصّة، أُوكِلت لها مهمة المتابعة الدّائمة والتّنظيف المستمر، على نحو مؤسسة "Electro Painters" التي بلغ رقم أعمالها 19 م. فرنك فرنسي–آنذاك- تضم 60 عاملا، أبرمت مع شركة R.A.T.P عقدًا للتّنظيف اليومي لهياكلها " (Alain Faujas,, 1990).

استفحلت الظّاهرة وتَراكَمت الشّكاوى على السّلطات الأمنيّة، فمع بداية سنة 1990 قامت شركة النّقل "R.A.T.P" بإيداع شكاوى ضِدّ مجهولين لإتلافهم ممتلكاتها الخاصّة بتلطيخ وإتلاف قاطِراتها والتّي كلّفتها خسائر معتبرة، وتبعتها شركات النّقل الأخرى، بتخصيص مبالغ هامّة لمحاربة الآفة، فشركة "SNCF" رصدت 50 مليون€ سنويًا لتنظيف قاطراتها والمحطّات التّابعة لها، وجَنَّدَت أعوانها للهدف المذكور، كلّ هذه الجهود بذلت تحت بُنْد معلن 'الحفاظ على الذَّوق العام' (Sénat, 2011).

كما طالبت السّلطات من السّكان مساعدتها بتنظيف واجهات منازلهم، بل فرضت على أصحاب المحلاّت إزالة هذه المظاهر المَشِينَة، والامتناع عن دعوة الممارسين لزخرفة واجهات محلاّتهم، عكس ما كان مسموح به في السّابق، لرسم لوحات فنيّة قصد الإعلان والإشهار لسلعهم وخدماتهم. فعلى سبيل المثال سنة 1989 استنفذ ميترو باريس 35 مليون فرنك فرنسي، أضيفت إلى14 مليون سنة 1988، أمّا في 1999 فقد أنفقت السّلطات أزيد من 103مليون€ لتنظيف الأماكن المغطّاة بالكتابات، وفق استراتيجية ثلاثية المراحل:

المرحلة الأولى: تمّ تفعيل حملة تنظيف ما مساحته 240000 م^2.

المرحلة الثّانية: التّنظيف الدّوري لكلّ كتابة جديدة في مدّة لا تتجاوز 12ساعة.
المرحلة الثّالثة: أُوكلت مهمّة التّنظيف لمؤسّسات خاصّة بالتّعاون مع المصالح البلدية.

ويعتقد الباحث المتمرّس في علم الاجتماع "Alain Vulbeau" أنّ السّلطات أخطأت عندما تعاملت مع الممارسة الحضريّة الجديدة باعتبارها تلويثًا وتخريبًا للمنظر العام (Alain Vulbeau,1992,p62). أما في مدينة "Grenoble" مثلا اعتمدت سلطاتها في مُحاربة الظاهرة على شعار "تنظيف غرافيتيا اليوم يساعدنا للقضاء عليها غداً"، مع تكثيف الملاحقات الميدانيّة والقانونيّة للمُمارسين. رغم ذلك يقرّ نائب رئيس البلدية المكلّف بالنّظافة بالنّتيجة الرّاهنة للسّياسة المتّبعة بقوله "منذ عشر سنوات كان بإمكاننا التّعامل مع الوضع، أمّا اليوم كَبُرَ الصَّبي ولم يَعُد بإمكاننا حَمْلَهُ وحدنا"(Benjamin Pradel, 2005) .

وبالموازاة مع التّضييق على الممارسين حاولت السّلطات تبني سياسة المُرحِب بممارستهم الثّقافية، بل والاعتراف ببعض الأعمال وإيلاجِها لدُور العرض الرّسمية، لكنّها وُوجِهَت بانتقاد عديد الفاعلين السّياسيين والإداريين، وحتّى الباحثين، على نحو "Jean-Louis Harouel" الذّي رأى في الغرافيتيا نوعًا من "الثّقافة المضادّة"، ونوع من أنواع "اللاّفن"، التّي أفرزتها موجة ما بعد الحداثة النّاتجة عن تأثيرات الثّقافة الأمريكية التي استقبلناها بدون غَربلة ولا نقد التي تدخل في سياق "أَمرَكَة الثّقافة (Jean-Louis, "L'américanisation du culture Harouel,1998)، بأنّ سياسة الاحتواء والاعتراف التّي تحاول المؤسّسة الفنيّة تقديمها لا تغدو أن تكون ديماغوجيّة لا طائل منها. سياسةٌ برزت مَعالِمها مطلع 1989، حيث حاولت اِستجلاب المُمارِسين لمتاحف وصالات العرض-الرّسمية- وشَرعَنَة ممارستهم الغرافيتيّة لكن بدفتر شروط رسمي.

7. الفلسفة الألمانية للحدّ من الممارسة الغرافيتيّة:

لم يحد مسؤولو المجتمع الألماني كثيرًا عن القاعدة السابقة حيث وصف رئيس شرطة مدينة "برلين" "Marko Moritz's" هذه الرّسومات بأنّها "مخالفة قانونيّة"، أكثر مرتكبيها الشّباب الذين يتراوح سنهم بين 14 و20 سنة بصورة جماعيّة، وأنّهم سَيَتَوَقّفُون يومًا ما عن اِرتكاب مثل هذه المخالفات، بِحُكم نُضجهم وتَحمّلهم لمسؤوليّة أعمالهم، وسيَبتَعدُون عن "العُلب البَخّاخَة" التّي يستعملونها لتلويث واجهات المنازل، الجسور ووسائل النّقل..، ليتم تولّي الممارسة من طرف جِيلٍ جديد لأنّها ظاهرة تَتوارثها الأجيال، وهكذا ستبقى أعمالنا تدور في حلقة مفرغة، وأضاف أنّ "المُغَرفِتِين" يمتلكون نظامًا متطوّرًا وجهاز إنذار مُبكر، خاصّة من خلال التّواصل عبر الأنترنيت، بتبادل الخبرات وتحرّكات رجال الأمن، والفترات التّي يجب الاحتراز والإقلاع عنها مُؤقتاً (Jörg Luyken, 2008).

ولأنّ الغرافيتيا لم تقتصر على الأحياء المحدودة المستوى المعيشي بل أصابت "العدوى" حتّى الأحياء الرّاقية، اِضطّر مالكي العقارات الخاصّة لاقتناء أغطية خاصّة، لِلصقِها على واجهات منازلهم ومحلاتهم بهدف منع "المُغَرفِتين" من الكتابة عليها، هذا ما رفع الفاتورة السّنوية لنفقات تصليح الأضرار لأكثر من30 مليون€ لسنة 2008. ويثنّي قائلا، أنّه تتواجد ب"برلين" وحدها أزيد من 100 عصابة، يتراوح عدد عناصرها ما بين5 و6 أشخاص، لكلّ واحدة منها هويّتها المتفردة تتجلّى من خلال اِسمها الخاص Le Tag، وبَصمَتها ورُسوماتها المُتمَيّزَة، تعيش صراعاً دائماً مزدوجاً، من جهة مع قوات الأمن ومن جهة ثانية مع العصابات المنافِسَة (Cacinda Maloney, 2015).

عبثاً حاولت سلطات مدينة "برلين" فَكّ لُغز المُغَرْفِت الاستفزازي "Bansky" الذي دَوّخ السّلطات الأوروبية عامّةً، حيث أُشتهر برسوماته الصِّدامية الممزوجة بالسُّخرية، وبَرَعَ في تَغيِب هويته الحقيقية (الرّسمية). وللإطاحة بالممارسين رصدت السّلطات مكافأة ماليّة قدرها 1200€

لكل شخص يقدم معلومات دقيقة عن أيّ "مُغَرفِتٍ Graffeur"، وقدّر ذات المسؤول عدد ممارسي الغرافيتيا ببرلين وحدها حوالي8000 شخص من كل الجنسيّات. ونظرًا للكلفة الباهظة للآفة سخرت السّلطات إمكانيات ضخمة لملاحقتهم، حيث تمّ نصب كاميرات مراقبة في كل زاوية، إضافة لتكثيف دوريّات الشّرطة اللّيليّة التّي أعلنت سنة 2005 عن أوّل طائرة هليكوبتر من نوع (BGS)، مزوّدة بكاميرات عاليّة الكَشف (الأشعة فوق الحمراء)، لملاحقة هكذا ممارسين ليلاً(Cacinda Maloney, 2015) .

8. أمّـــا فـي الحواضر الإيطالـــية:

لعلّ من سيمات الممارسة الغرافيتيّة المعاصرة انطلاقها من تبريرات شخصيّة وفردية، ثمّ جماعاتيّة بل ومجتمعيّة، حيث عكست مطالب سياسيّة واقتصاديّة ضدّ الأزمة الاقتصادية التّي عاشتها البلاد لسنوات، وإفرازاتها الإجرائيّة والقوانين ضدّ الفرد الإيطالي، فاتشرت بشكل ملفت بمختلف الفضاءات الحضريّة، حيث أخلطت الأوراق على مسؤوليها، فها هو عضو مجلس مدينة البندقية "Augusto Salvadori" يقولها بصراحة "أنّ المجلس لم يعد قادرًا على تحمّل التّكاليف اللاّزمة للتّنظيف"، خاصّة وأنّها عمّت حتّى المعالم التّاريخيّة للمدينة، ممّا يؤثر على العوائد السّياحيّة -أكثر من 20 مليون سائحاً في السّنة- لذا يجب تنميّة "الحسّ المدني Civic conscience" لدى بعض السكان (Italy magazine, 2008).

أمام هكذا تحديّات أطلقت السّلطات المحليّة لعديد المدن خاصّة "روما"، "البندقية".. دراسة مسحية حول الظاهرة لتخلص إلى أنّ حوالي 7000م^2 من مساحة المدينة مَكْسُوّة بالكتابات الغرافيتيّة، فبدأت بتكثيف حملاتها الرّدعيّة من جهة والتَّوعَوِية من جهة أخرى، فقامت بتنظيم ملتقيّات علميّة تمحورت إشكالاتها حول الظاهرة ومسبّباتها وسبُل الحدّ من انتشارها، كما حرصت على تفعيل مسابقات تنشئَويّة بين طلبة المدارس والثّانويات عرفت باسم " Stop graffiti"، تروم من خلالها تلقين التّلاميذ ثقافة مضادّة للفعل الغرافيتي، باعتباره فعلاً غير حضاريّ وغير أخلاقيّ يجب الإقلاع عنه ومحاربته، وبالموازاة تمّت توسعت الحملات بنشر آلاف الملصقات الإعلانيّة ضِدَّ الغرافيتيا، حتىّ على أكياس وعُلَب الحليب والأجبان.

9. الـغرافـيـتـيـا والاجـتـهـاد الأسـتـرالي الرّسـمـي:

بلغت تكاليف مكافحة الظاهرة بالمدن الأسترالية حسب الكاتب العام لوزارة المحيط أزيد من 200 مليون دولار أسترالي سنويًا، ففي جهة أستراليا الغربية وحدها فقط بلغت تكلفة تنظيفها سنة 1993 أزيد من ستّة مليون$ أسترالي(Ted Ninnes,1998). بالنّسبة للمؤسسات أنفقت شركة "PTA" للنّقل العام لأستراليا الغربية ما قيمته 2,5 مليون$ سنويًا، أيّ 6,850$ يوميًا (Myra Taylor and Ida Marais, 2009). ممَّا حَدا بالسّلطات لتكثيف سياسات الرّدع والاحتواء وتخصيص فرق خاصّة لمتابعة الجُنَاة.

كما حاولت بالموازاة استيعاب الممارسين بِشَرْعَنَة بعض الفضاءات المحدّدة سلفاً لذلك، لكن لم تتمكن -كغيرها من الدول- من القضاء عليها، بل ظهرت وتعالت أصوات تُؤمِن بإستحالة القضاء عليها لأنّها حَياة المجتمع، إذ يقول "George C. Stowers" أنّه لا يمكن تَوقيف انتشار ظاهرة الغرافيتيا لأنّها جزءٌ من وجودنا، تعبّر عن دلالة مجتمع ديناميكي وتقاليد إنسانيّة، حيث يَترك الأشخاص علامات لإثبات وجودهم بذلك المكان، ولأنّهم يشعرون بضرورة الحضور والبقاء الدّائم (George C Stowers, 1997)، ويصفها "غريغوري ج. سنايدر Gregory J. Snyder" بأنّها أضحت ظاهرة ثقافيّة عالميّة تَدْمغُ الفضاء الحضري وتَضُم آلاف الممارسين (Gregory Snyder, 2009, p8).

خلاصةً لما سبق يمكن التّمييز بين خمس فئات "متفاعلة" مع الظاهرة، تتباين في تَمثُّلاتِها وأحكامها ومواقفها اتجاهها:

- الممارسون أنفسهم (المُغَرفِتون Les graffiteurs/ graffeurs).
- الأشخاص الرّافضون والسّاخطون عليها، لأنّها مُؤشّر للسّلوك الهمجي ونُقص التّحضُّر.
- المُتَفَهِمون للغرافيتيا وبعض أُسَر الفاعلين، لأنّها "Thermomètre" لقياس أمراض المجتمع والدولة التي تُعَشعِش في الأعضاء الفرعيّة للجسم المجتمعي، من بينها النَّسق التَّعليمي كما يؤكد "ألان ميلون Alain Milon".
- الإداريون والسّياسيون المتفهمون، باعتبارها "فنٌّ رَاقٍ" يجب احتضانه واستيعابه.
- الإداريون والسّياسيون الرّافضون لها، لأنّها تخريب وتَعَدٍّ صارخ على حق الملكيّة الخاصّة، وهَدْرٌ للمال العام، بل شَرٌّ يجب القضاء عليه.

10. دونـيّة الممارسة وفق المعايير العربـيّة:

في المجتمعات العربية غالباً ما تلاحَق الممارسة بدءًا بِاسمها "الخربشة Gribouillage الأكثر حضورًا في توصيفها بوابلٍ من الأحكام القيميّة المعياريّة، والخربشة كما أشرنا سابقًا ذات دلالة دونيّة وتصرّف صبياني طائش، إذ يُنظَر إليها كظاهرة ممقوتة وموصومة، نابِعة من "قِلَّة التّربية" وسوء الأخلاق، وتَخَلُّف ونُقص في التَّحضّر والتّمدّن، بل وحتّى التَّدَين. تُمثّل مُنحدَراً سُلوكياً سَيّئاً يجب الحدّ منه دون الإكتراث لأسبابها الحقيقية. الأحكام القَيمية الأخلاقيّة هي الأكثر حضوراً في الحديث عنها –إن كان هناك حديث جاد-حتّى من طرف "النّخبة"، للمثال نورد رأي المستشار القضائي والشّرعي "صالح بن سعد اللحيدان" بجريدة الحياة السعودية (2010/5/28) بأنّ هذه الكتابات عبارة عن كتابات طائشة، وظاهرة تَنِمُّ عن قُصورٍ في الفكر البشري، خصوصاً لدى الشّباب، وبأنّها لا تجوز شرعاً لِما يترتب عليها من إيذاء للآخرين ومن خسائر مادية، سواء في الممتلك العام أو الخاص.

أمّا في المجتمع الجزائري يؤكد الأستاذ المحامي "نور الدين ميسه" أنّ قانون العقوبات يعتبرها "جنحة" تمسّ الأماكن العمومية والأشخاص والأسر والآداب العامة، فالمادتان 330 مكرر و333 من القانون (2015) تعاقبان بالحبس من شهرين إلى سنتين وبغرامة ماليّة من 500 إلى 2000 دج، كلّ من إرتكب فعلاً مُخِلاً بالحياء، وكلّ من صنع أو وَزّع أو ألصق أو عرض أو طبع أو حرّر أو رسم أو صوّر.. أو شَرَّعَ في هذه الأفعال لأيّ شيء مُخل بالحياء، إضافةً للتّبعات المدنية للتّعويض عن الأضرار(ميسة عاشوري، 2012).

11. صِنافة لأبرز خصائص "الممارسة الغرافيـتية":

من خلال ترصّدنا للأهم الدّراسات التي لامست الظاهرة خاصّة من زواياها السوسيو أنتروبولوجية يمكن تقديم صِنافَة Taxonomie لأهم الأطروحات حولها:

- الغرافيتيا كنوع من أنواع الانحراف.
- كنمط للاتّصال والتّواصل المابعد حداثي.
- كجزء من الثّقافة والذّاكرة الشّعبيّة.
- كتعبير عن ثقافة فرعيّة متميّزة، ومنه هوية متميّزة ومُمَيّزَة.
- كإنعكاس لحالة التّمييز العرقي والاثني ومنه لحالة إغتراب فئوي، بل مجتمعي.
- وسيلة من وسائل التّعبير السّياسي غير الرسمي.
- كشكل من أشكال التّعبير الفنّي المعاصر (خصّصة في متون الدّراسات الأمريكية والغربيّة).
- الغرافيتيا عبارة عن "كتابة هيروغليفية معاصرة" (Eduardo Camacho- Hűbner, 2006).

خاتمة:

في الختام يجب لفت انتباه القارئ أنّ أغلب الدّراسات الغربية المتأخّرة التّي لامست الظاهرة ركّزت على بعدها الفنّي (الجمالي)، والتّعامل معها باعتبارها فنّ معاصر، يعرف بـ"الفن الغرافيتي Graffiti Art"، أو التّصويري (نِسبة للصّورة الغرافيتية Graffiti figuratif)، بينما تتميّز غرافيتيا المجتمعات العربيّة بطابعها "الكتابي"، وعليه استخدمنا دراساتنا حول الموضوع مصطلح "الكتابات الغرافيتيّة Les écris graffitiques"، "كتابات" تعكس في عمومها مطالب ومعاناة اجتماعيّة وسياسيّة، ثقافيّة وهويّاتيّة "متأزّمة"، فردية وجماعاتيّة، بيد أنّ هذا لا يعني غياب إرهاصات تقليد نمط "فن الغرافيتي"، والذي يعكس بدوره نفس الأهات بأسلوب متميّز راقّ وغير مباشر، كلا الأسلوبين لا يأبَها لمقدمات التّعبير الكلاسيكية المُتعارَف عليها رسمياً. ولكن نعود ونذكّر بأنّه لا يمكن ملامسة ومقاربة الظاهرة من مستوى واحد، لأنّ الغرافيتيا ظاهرة جِدّ معقدة ومُتقاطعة المستويات والأبعاد.

قائمة المراجع:

1. عاشوري ميسه (2012)، استفحال ظاهرة الكتابات الحائطية على جدران مدينة الوادي، تاريخ الاطلاع:2016/8/19، من بوابة الشروق: https://www.echoroukonline.com

2. مرح البقاعي (2004)، عصابات الغرافيتي والجداريات، تاريخ الاطلاع:2016،4،22 من الحوار المتمدن: www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=26837

3. AFP. (2006). La Libre Belgique. Consulté le: 02,12, 2012, sur La guerre des graffitis à New York: http://www.lalibre.be/culture/arts-visuels/article/ 262955 /la-guerre-des-graffitis-a-new-york.html

4. Ashley Ian, Beynon Daniel. (2005). Graffiti at UBC: A Sociological Analysis of Graffiti. Consulté le 3, 23,2012, sur UBC Undergraduate Research: https://open.library.ubc.ca/cIRcle/collections/undergraduateresearch/18861/items/1.0108180

5. Austin Joe. (2001). Taking the train: How graffiti art became an urban crisis in New York city. New York: Columbia University Press.

6. Café Graffiti. (n.d.). MURAL ARTS. Retrieved 3,12, 2013, from Mural Arts Philadelphia is the nation’s largest public art program, dedicated to the belief that art ignites change: https://www.muralarts.org/about/

7. Camacho- Hűbner Eduardo, (2006). "Je suis Mxx, et toi ? – Moi ? Xiiimxv", espaces Temps, Mensuelles. sur http://www.espacestemps. net/ document 18 67.html

8. Craig Castleman. (1982). Getting Up:Subway Graffitti in New York. Massachusetts: The MIT press.

9. Cazes Jean. (2007). De graffiti en graffiti: VOIR LA VILLE. Consulté le 5, 23, 2012, sur Iris Gagnon-Paradis, Voir Québec: https://voir.ca/voir-la-vie/art-de-vivre/ 2007 /08/08/de-graffiti-en-graffiti-voir-la-ville

10.Coscarelli Joe. (2013). New york. Retrieved 6, 5, 2015, from Mayor Bloomberg Does Not Care for This Banksy Vandalism: http://nymag.com/daily/intelligencer/2013/10/bloomberg-banksy-not-my-definition-of-art.html

11.Faujas Alain. (1990). Profession: chasseur de « tags ». Le Monde .

12.Felisbret Eric.& Felisbret Luke. (2009). Graffiti New York. USA: Harry N. Abrams Inc.
13.Ferrell Jeff. (1995*)*.Urban Graffiti: crime,control,and resistance. Youth and society, v 27.
14.Harouel Jean-Louis. (1998). Culture et contre- culture. Paris: Quadrige, PUF.
15.Hicks Jonathan P. (1994). Mayor Announces New Assault on Graffiti, Citing Its Toll on City. New York Times.
16.Italy magazine. (2008). Retrieved: (2013, Dec, 12), from Venice asks for graffiti stop: http://www.italymagazine.com/italy/veneto/venice-asks-graffiti-stop
17.Ilse Scheepers . (2004). Art Crimes Front Page. (A. C. Page, Editor, A. University of Sydney, Australia,) Retrieved 6, 22, 2009, from Graffiti and urban space",(Thesis): https://www.graffiti.org/faq/scheepers _graf_ urban_ space.html
18.Kelling G. L.,&Wilson,J.Q. (1982). Broken Windows: The police and neighborhood safety. Atlantic Monthly.
19.Maloney Cacinda. (2015). Berlin Graffiti. Retrieved 10, 11, 2012, from points and travel: https://www.pointsandtravel.com/berlin-graffiti/
20.Nicolas Mensch. (2013). L'art transgressif du graffiti: pratiques et contrôle social. These en Sociologie. École doctorale Langages, Espaces, Temps, Sociétés : Université de FRANCHE-COMTÉ.
21.Ninnes Ted. (1998). Ministry of Social Development NZ. Retrieved:6,10, 2011, from Diversion and graffiti abatement programs– A new direction: https://www.msd.govt.nz/about-msd-and-our-work/publications-resources/journals-and-magazines/social-policy-journal/spj10/diversion-and-graffiti-abatement-programmes.html
22.Newburn Tim and Jones Trevor.(2007). Symbolizing crime control: Reflections on Zero Tolerance. in Theoretical Criminology 11(2), Vol. 11(2).
23.Philosophales Pierres.(2010). Photo graffiti(es) d'Expressions Murales. Consulté le 9,13, 2011, sur Collectif des 12 Singes: http://photograffeurs.over-blog.net, eBook
24.Pradel Benjamin. (2005). Entre institutionnalisation et clandestinité: le graffiti ou l'hydre à deux têtes. Consommation et Société, pp177-188.
25.Sahut Romain. (2003). Mémoire d'expression: Les graffiti et l'art urbain . france: IUTBM.
26.Senat. (2011). Coût des réparations des tags et graffitis [archive]. Consulté le 2, 23, 2012, sur senat.fr: http://www.senat.fr/questions/ base/2001/ qSEQ0110 11 39S.html
27.Snyder Gregory J. (2009). Graffiti Lives, Beyond the tag in New York s urban underground. New York: New York University Press.
28.Stowers George C. (1997). Art Crimes Front Page. Retrieved 01 22, 2010, from Graffiti art: An essay concerning the recognition of some forms of graffiti as art: https://www.graffiti.org/faq/stowers.html

29.Taylor Myra & Marais Ida.(2009). Does urban art deter graffiti proliferation?, An evaluation of an Australian commissioned urban art project, The University of Western Australia. Papers from the British Criminology Conference, An Online Journal by the British Society of Criminology, Vol 9, pp57-70. http://www.britsoccrim.org/conferences.htm
30.Viger Raymond. (2011). Historique du graffiti à Montréal. Consulté le 2 ,12, 2013, sur https://raymondviger.wordpress.com/2011/06/01/histoire-graffiti-montreal-historique-graff-art-urbain/
31.Vulbeau Alain. (1992). Du tag au tag. Les Annales de la recherche urbaine, N°54, Violences dans les villes.
32.Walsh Michael. (1996). Graffito. North Atlantic Books.
33.Wells Liz. (2004). Photography: A critical introduction. New York: Routledge edition.